شعرية النسر
في الخطاب الشعري
المعاصر شعرية النسر والتقاليد
الجمالية الكلاسيكية

ولانعدم هذا التصور فى شعرنا العربى المعاصر أيضا بخصوص انتقال النسر من نص الأسطورة الساعية إلى حلم الخلاص والانطلاق إلى أسطورة النص، وقد وجدا ذلك لدى الشاعر احمد شوقى فى نصه عن النسر الذى كتبه فى أول طيار مصرى يركب الطائرة .

يقول شوقى فى قصيدته :(النسر المصرى):-

أعقاب فـــي عنـــان الجـــولاح ... أم سحاب فر من هوج الريـــاح؟
أم بساط الريح ردتـــه النـــوى ... بعد ما طوف في الدهر وساح
أوكأن البـــرج ألقـــى حوتـــه ... فترامى في السماوات الفســـاح
أقبلت من بعد تحســـبه نحلـــة ... عنـــت وطنـــت فـــي البـــراح
يا سلاح العصر بشـــرنا بـــه ... كل عصـــر بكمـــي وســـلاح
إن عزا لم يظلـــل فـــي غـــد ... بجناحيك ذليـــــل مستبـــــاح
فتـــــــكاثروتألف فيلقـــــــا ... تعصم السلم وتعلـــو للـــــكفاح
مصر للطير جميعـــا مســـرح ... مالنـــا فيـــه ذنـــابى أوجنـــاح
رب ســـرب قـــاطع مـــر بـــه ... هبط الأرض مليـــا واســـتراح
لـــم لايفـــتن فتيـــان الحمـــى ... ذلك الإقدام أوذاك الطمـــاح ؟
من فتى حـــل مـــن الجـــوبهم ... فتـــــلقوه علـــى هـــام وراح
إنـــــه أول عصـــــفور لهـــم ... هزفي الجو جناحيـــه وصـــاح
دبـــت الهمـــة فيـــه ومشـــت ... عزمات منك يا حرب صحاح
ناطح الـــنجم فتـــى علمـــته ... في حياة حرة كـــيف النطـــاح
لك في الأجيال تمثـــال مشـــى ... وجدوا الرشد عليه والصـــلاح
جاوزالنيـــل وعبريـــه إلـــى ... أكم الشـــام وهاتيـــك البطـــاح

فارس الجوسلام فـــي الـــذرى وعلى الماء ومن كل النـــواح
ثب إلى النجم وزاحـــم ركنـــه وامتلئ مـــن خـــيلاء ومـــراح
إن هـــذا الفـــتح لاعهـــد بـــه لضفاف النيل من عهـــد فتـــاح
تلك أبواب الســـماء انفتحـــت ماوراء الباب يا طير النجـــاح ؟
أسماء النيـــــل أيضـــا حـــرم من طريق الهند أم جومبـــاح ؟
عين شمس ملئت من موكـــب كان للأبطال أحيانـــا يتـــاح[٧٤]

النسر هنا رمز خارجى تظل المسافة بعيدة بينه وبين بنية النص ، الرمز يراه الشعر من الخارج، لم ينضج الرمز بعد ليتحرك من باطن النص إلى خارجه، لكن شوقيا وفى للتقاليد الكلاسيكية التى ترى الشعر محاكاة للواقع المحيط به، القصيدة صوت العقل الحكيم الذى يستشهد بالنسر ويحكى عنه موروثه الثقافى فى السؤدد والعزة ، يتجلى ذلك فى صورة النسر رمز الطائرة فهو سلاح العصر، وملاذ العزة فى عالم لا عزة فيه إلا للقوى ، إن فروسية الشاعر القديم انتقلت لدى شوقى من شجاعة الأرض ممثلة فى قوة السيف إلى شجاعة السماء ممثلة فى صورة النسر الطائر ، استبدل الشعر الكلاسيكى فارس الصحراء بفارس السماء ، مازال مديح الفارس هو الغالب على النص الكلاسيكى ، لكن الفروسية تنتقل هذه المرة من قوة البدن إلى قوة العلم ، لازالت الفروسية خارجية نراها فى فارس الذرى الذى يثب إلى النجم ، ويسمو للذرى لكن شوقى يحكى رحلة النسر وكأنه طرفة يحكى عن ناقته القديمة ، يظل النسر متقلبا فى صور تشبيهية فى صورة العقاب الذى لاح معتليا الأفق البعيد ، أو صورة السحابة الحرة التى تناوىء هوج الرياح، أو صورة بساط الريح السحرية التى تعلو كل عقبة ، وتخترق كل السدود والحدود، مازال النص ينمو بعيدا عن مكوناته الداخلية، وتمر حركة الرمز الأسطورى مرورا وثائقيا وكأنه متن أسطورى ينظمه شوقى فى

موازة القصيدة، إن الحلم بالطيران هنا يظل ممارسا خارج أشكال الخيال فى النص، وينفصل الحلم عن بنى النص الداخلية، ولا يأخذ الشعر من الإمكانات الجمالية والمعرفية الكامنة فى رمز النسر من الخفة والحركة والحرية والسمو سوى مداراته الخارجية الشكلية، وإذا كان شوقى يفخر بالنسر رمز القوة والحضارة، فإن سعيد فياض يفخر بالنسر الشهيد رمز الفارس المعاصر فى قران واضح بين عقاب الجو وفارس الذرى شبيه السحاب الطليق لدى شوقى، وبين نسر الشهادة لدى سعيد فياض فى صورة شهاب الأمانى، والرياح الطليقة التى تزرع الأفق بالمضاء والسنا والوضاءة العلوية، دائما الرمز فى النص الكلاسيكى خارج القصيدة، يقول سعيد فياض عن النسر الشهيد الصريع:

أيهاالنسر، ياشهاب الأماني ... من سنى ومضها، يذر الضياء
لا تخف جلبة الرياح إذا ... ماجن فيها الردى ، وثار العداء
واذرع الأفق.. ماحملت من ... العزم شعاعا أذيب فيه المضاء
إن قلبا حملته يعشق المجد ... تلاشت أمامه الأرزاء
وجناحا مددته يزرع الجو ... خضوعا إن هزه كبرياء
ينشران السلام فوق ربوع ... قبلتها في ثغرها العلياء
حاولت حطمها الأكف ... الأثيمات وودت لو أنها قفراء
وتمنى لو أنها البلقع اليبس ... عدوأخف منه الداء !
..أيها النسر، ياطويل الجناحين ... أتدري من نحن والأعداء ؟
نحن قوم ، نرى الفضيلة دينا ... وعلينا من ومضها لألاء
ونرى في العهود دينا، وفي ... الصدق شعارا أطل منه الوفاء[٧٥]

النص هنا يقدم معلومات عن النسر ولا يخلق لنا عالما جماليا موازيا من الإيحاء المتعدد ، والترامى الرمزى المتقلب بين الأزمنة والأمكنة،والتصورات والرؤى.بل يقرر تقريرا عقليا يتطابق والعالم الإشارى للغة فى الواقع الحرفى ، إن رمزية النسر هنا رمزية معجمية لاتكاد تتجاوز الرمز الإشاري المباشر للغة إلا قليلا.

إن الإنسان باستمرار يلتجىء إلى المنابع الخصيبة الأولى حين يلتمس المدد والسند ، وهو يجأ إليها بطريقة شعورية ولا شعورية معا، وربما كان اللاشعور هو الحادى النافذ البصيرة نحو الخلاص دائما، إذا يكون منبعا للخلاص الفائق للعادة وهو يمتلك قدرات أسطورية تفوق حدود البشر وتخترق قيود الزمان والمكان،كما يبسط مددا مترَاميا للاستشراف والعلو والتسامى، ومن هنا كان لجوء الشعر إلى نسر الأسطورة كعودة إلى حلم قديم بالطيران والتجاوز والانتصار على العقبات والسدود، وقد جسد الشعر هذه الأحلام على المستوى الفردى والجمعى معا، ففى قضية فلسطين يقول الشاعر على هاشم رشيد فى قصيدته(النسر الجريح):

"... في زحمة الأقدار... وفـي غضـبة "
" الإعصـار ... تهـاوى مـن ذراه... "
" جريحا.. ضـعيفا .. إلـى السـفوح .. "

قم انشر جناحيك... أطلقهمـا وهاك الوجود، وعرض السما
إلام تظل مهـيض الجنـاح تخبط في اليأس ، مستسـلما ؟
ويعروك.. في كل حين ذهول ويقضي عليك الأسى والظمـأ
تحامل وطرفي سماء الخلـود وجاوز إلـى حقـك الأنجمـا
أليست عشاشك ، مهد الطموح ألست لها العاشق المغرمـا ؟
ألم تك بالأمس.. أمس القريب لـديها المعزز والمكرمـا ؟

فماذا جرى كيف شاء الزمـــان ... بـــأن تســـتباح وأن تحرمـــا ؟
وماذا على الأرض غير النفـــاق ... وغير الكذاب وغير العمـــى ؟
خـــداع يـــراوغ فـــي ذلـــــة ... وزيـــف تأصـــل واســـتحكما
تحامل وطرفي الفضـــاء الرحيـــب ... فـــإن مـــن العـــار أن تحجمـــا
إذالم تطرأنت .. من ذا يطير؟ ... ومنن ذا يحلق فوق الحمـــى ؟
أمافيك مـــن نخـــوة للوثـــوب ... تهزبهـــا النـــوم والنومـــا؟
أليس مـــن العـــارأن تســـتذل ... وأن تســـترق وأن تهزمـــا ؟
أليس من العـــارموت النســـور ... على الأرض لا فيعنان السما؟
تحامل،وغلغل، وراء الخطوب ... وأطلق جناحيك .. أطلقهمـــا[٧٦]

يقيم الشعر هنا مفارقة متعددة السياقات الجمالية والمعرفية ، بين الهبوط والتردى والإفاقة والصعود من خلال بنية النص نفسه، بين حقول هيض الجناح وأفق اليأس والاستسلام وأرض الكذاب والعمى والاستباحة، وحقول: الفضاء الرحيب والنخوة والوثوب وعنان السما، ولكن الشاعر يبنى قصيدته بناء تراكميا مباشرا يلتزم المحاكاة المادين الواقعين بين حياة الواقع فى الأسطورة وحياة الشعر فى بينة النص ، وكاننا أمام موازة وثائقية بين عالم الأسطورة وعالم الشعر، إن الشعر يستحث النسر إلى الوثوب من نثرية السفوح إلى شعرية القمم، مستعيدا قممه الغائبة التى اضطر من بعدها إلى العيش فى تقزم السفوح، ومن هنا فإن على هاشم رشيد لم يتجاوز شوقى كثيرا بل لازل الشعر لديه سابحا فى أفق المحاكاة الكلاسيكية الجديدة، نرى هذا التصور الشعرى أيضا لدى الشاعر الفلسطينى يوسف الخطيب فى قصيدته (أسطورة النسر والخفاش)) حيث يربط الشعر ربطا مباشرا بين جراح الأمة العربية ممثلة فى فلسطين المهيضة وبطلها الشهيد عدنان المالكى وبين جراح النسر الملقى على السفوح والذى يحثه الشاعر إلى النهوض ثانية يقول الشاعر :

صاحبي،إن تملأ الكأس دموعا فهـــى حســبي ... فى بـــلادى خـــدر يعقـــد أوصـــال النيـــام
لم يعدفي الناي أفـــراح أغنيهـــا لشـــعبي ... في بلادي لم تزل تأوي خفافيش الظلام
كل أحزان الثكالى نابضات مـــلء قلبـــي ... عبر كهف الليل تختال علىكل حطـــام
ولقد مزقت آمالي علـــى أشـــواك دربـــي ... ..فجرنا في رحـــم الـــدهرتلوألف عـــام
وجعلت الصمت والنســيان والعزلـــة دأبـــي ... وغدا يولد طفل الشمس في حضـــن الشـــام

ذلك النسرالذي لا ينكرالنجم طماحه

أدر الخمرة يـــا ســـاقي علـــى كـــل حـــزين ... ممعنا ، يوغل في الجو فما يخشى رياحـــه
من ينـــابيع الأســـى طافحـــة مـــلء العيـــون ... ذلك النسرالذى أرخى على الســـهم جناحـــه
ادرالـــذكرعلى الأكبـــاد ياســـاقى الحنـــين ... بعدأن خلف في الأرض وفي الجو مناحـــة
كي ترانا في لهيب الحزن ، في نـــار الأنـــين ... ضمدوايا إخوتي في ساحة الثـــأر جراحـــه
نتلظـــى ، كلنـــا ينضـــح بالثأرالـــدفين ... هكذا تروى عن العـــرب أســـاطيرالبطولة:

عاشق أغمض عينيه على رؤياجميله

ياليـــالي أمتي،قرحـــت بـــالآلام جفنـــي: ... كان يشتاق لهـــاعبر لياليـــه الطويلـــة
لم أزل في معبد الأشـــباح اســـتلهم فنـــي ... وهب القلب لها والسيف والروح النبيلة
ولكم سمرت فى أوثانـــه الشـــوهاء عينـــي! ... لم يكن يروي ، سوى الوحـــدة والثأر،غليلـــه
ياليالي أمتي،في مزهـــري آخـــر لحـــن ... احزني يافاعلى من كان يشـــتاق إليـــك
فى غد يروى على الأجيال أسطورة حزن ... آملاأن يبـــذل المهجـــة مـــا بـــين يـــديك
.. كان فى القمة نسريدرك النجم عـــلاء ... حيث يجلو دولة القرصان والشذاذ عنـــك
عربـــى الـــنفس نـــبلا وســـموا وإبـــاء ... فى خميس عربى يســـحب الفجرعليـــك
جـــامح فـــي ملعـــب الارياـــح، يرتادالســـماء ... أحزنى من لوعة الذكرى وخلي القـــدس تبكـــي
فى مدى عينيه تلقى عالمـــا رحبـــا مضـــاء ... أيها الراحل فى عمق النوى ، مازلت حيـــا
وجناحاه،كمـــا يتشـــح الملـــك رداء ... مائلا فينا، كأن الغدرمانالك شـــيا

إن فى عينيك من إيماضة الخلد ثريا

وهو من عليائـــه يلـــق علـــى الغابـــة ظلـــه ... لم تزل بسماتك البيض، ومـــا زال المحيـــا

حائماعبرالمدى. تـــأتلق الأفـــلاك حولـــه مشـــرقا، يطفـــح إيماناوعزماعربيـــا
فى رواء تخجـــل الاســـاد إلا أن تجلـــه لو ترانا في وداع النعش أطيافا غريبـــة
كان يرعى قمة شامخة الرأس مطلـــة أوجها مشدوهة ناطقة الصمت كئيبـــة
قمة شـــماء،منها ينبـــع النيـــل ودجلـــه لوترى وجناتهم تنهل بالدمع خضيبه

كنت أشفقت على الأحياء من هول المصيبة

ذات يـــــوم ريعـــــت القمـــــة بالنسرالمصـــــاب ..ويح نفسي ، فى عباب اليـــأس أطلقـــت شـــراعي
ودع الأيـــــام فـــــي نيســـــان،فى عمرالشـــــباب غارقافي الصمت، فى النسيان فى عمـــق الضـــياع
فـــإذا الغابـــة نهـــب للأفـــاعي والـــذئاب ثم قادتني رياح البعث للشط المضـــاع
والخفافيش التي تسكن دومـــا فـــي الخـــراب قسما، كفرت عن إثمي،وقدست صـــراعي
أخذت من بعده تدعو لتتـــويج الغـــراب أنا إن لم آخذ الثأرغدا شلت ذراعـــي

إن من مهزلـــة الـــدنيا ، ومـــن ظلـــم الزمـــان
صولة النذل علـــى مـــن ســـاجل الـــدنيا طعـــان
هكـــــــذاأخبث ماتصـــــــطنع الغدريـــــــدان
هكـــــذا،لايطعن الظهرســـــوى نـــــذل جبـــــان
إن عـــــين النســـــر والخفـــــاش لا تلتقيـــــان[٧٧]

إننا نجد هنا أيضا ذات المفارقة الشعرية بين حقلى الظلمة والنور، الظلمة ممثلة فى السفوح والخفافيش، والنور ممثلا فى النسور والآفاق المترامية للحرية، لكن يشير الشعر هنا ولا يجسد، يحاكى ولا يخلق، وكأن الأسطورة لم تنزح عن عوالمها الأسطورية الخام إلى عوالم الشعر المتحولة، لقد انتقل الحلم الحضارى لدى شوقى بخلق نسر النهضة والطيران فى عوالم التقدم الحضارى ، إلى خلق نسر الانتصار لدى الشاعرين الفلسطينيين على هاشم رشيد ويوسف الخطيب .